مفهوم الثقافة بين إطار
الحضارة و تشكّل المدنية

يعد مصطلح الثقافة من المصطلحات ذات النسبية العالية جداً هو مصطلح مختلف المعانى.فعلى سبيل المثال،، قام كلا من ألفريد كروبير ووكلايد كلوكهن Clyde Kluckhohn في عام 1952 بعمل قائمة مؤلفة من 164 تعريف لكلمة "ثقافة" في كتاب بعنوان الثقافة : مراجعة نقدية للمفاهيم والتعاريف. ومع ذلك، فإنه يمكن استخدام كلمة "ثقافة" في التعبير عن أحد المعانى الثلاثة الأساسية التالية:

- التذوق المتميز للفنون الجميلة والعلوم الإنسانية، وهو ما يعرف أيضا بالثقافة عالية المستوى.
- نمط متكامل من المعرفة البشرية، والاعتقاد، والسلوك الذي يعتمد على القدرة على التفكير الرمزي والتعلم الاجتماعي.
- مجموعة من الاتجاهات المشتركة, والقيم, والأهداف، والممارسات التي تميز مؤسسة أو منظمة أو جماعة ما.

وعندما ظهر هذا المفهوم لأول مرة في أوربا بالقرنى الثامن عشر والتاسع عشر، كان يشير فيما يشير إليه إلى عملية الإستصلاح أو تحسين المستوى، كما هو الحال في عملية الزراعة أوالبستنة.أما في القرن التاسع عشر، أصبح يشير بصورة واضحة إلى تحسين أو تعديل المهارات الفردية للإنسان؛ لا سيما من خلال عملية التعلم؛ ومن ثم إلى تحقيق قدر من الرخاء القومى أو القيم العليا. إلى أن جاء منتصف القرن التاسع عشر، وقام بعض العلماء باستخدام مصطلح "الثقافة" للإشارة إلى قدرة الإنسان البشرية على مستوى العالم.

وبالتالي فإن محاولة تحديد نطاق مفهوم الثقافة يصطدم بعدة معضلات تتمثل في أن واقع نطاق مفهوم الثقافة قد يشمل أياً من نطاقات:

- الثقافة كمعيار فردي لنماذج (عينات) من طبقات المجتمع المختلفة وذلك وفق منهج تكميمي Quantitative ينحصر معه المفهوم في النطاق العقلي أو السيكولوجي المعرفي لأفراد المجتمع كممثلين لما يشابة مفهوم الفكر الشائع Commonsense.
- الثقافة كحصيلة تراكمية لعملية التعلم الإجتماعي، وهذا النطاق لمفهوم الثقافة يشمل كلاً من عملية تطور الثقافة داخل حضارة أو مدنية ما والثقافة كعملية كونية فيما بين الحضارات و المدنيات.

فالحضارة قد تتضمن عدة ثقافات و لكن من خلال التفاعل المستمر للأجناس المكونة لحضارة ما فإنه من المحتم أن تتشكل ثقافة حاوية لهذه الثقافات، مع إختلاف درجة ثبات هذه الثقافات وقوة درجة تأثيرها على؛ وتأثرها بمحصلة الثقافة الحاوية.

أيضا قد تودي الظروف المحيطة إلي تسارع عملية تكون هذه الثقافة الجديدة وفق ظاهرة إنصهار عرقي Ethnic مع تنامي عجلة تلاشي الثقافات المنصهرة الشئ الذي تضعف معه التأثيرات الأولية للثقافات المنصهرة بصورة تدريجية أو حتي إمكانية فصل درجة تأثير أياً من هذة الثقافات علي محصلة الثقافة الجديدة.

أما مصطلح الحضارة وعلي الرغم من ترادفه و مصطلح الثقافة وخصوصاً في الثقافة الغربية بالإضافة إلي تعدد مفاهيمة فيمكننا إعتباره بمثابة قالب تنظيمي للمجتمعات الإنسانية علي إختلاف مراحلها التاريخية، وهو بالتالي يشكّل إطاراً يحوي محصلة الثقافة التراكمية للمجتمعات المكونه للحضارة إضافة إلي الثقافات الفرعية المتعلقة بكل جنس من الأجناس الداخلة في إطار هذه الحضارة. كذلك من الناحية المفاهيمية فإننا نميل إلي إعتبار كلا المكونين المادي والمعنوي كمكونين أصيلين للدلالة علي مفهوم الحضارة وذلك دون ترجيح أية كفة علي الأخري.

ولعل السبب في ذلك يعود إلي ظهور مصطلح المدنية كتعبير أخر اوجه من

اوجه الحضارة في الثقافة الغربية. إذ أن محاولة التمييز بين مصطلحي الحضارة والمدنية كثيراً ما أدي إلي خلط مفاهيم الدلالات وذلك دون دخول مصطلح و مفهوم الثقافة حيز هذه العلاقة.

وأيضاً نميل إلي أن نتخذ نفس المنحى مع مصطلح المدنية من كون أنه يشمل كلا المكونين المادي والمعنوي للمجتمعات الإنسانية، أما الإختلاف بينهما فيتمثل في جانبين:

المدي الزماني: وذلك من خلال إعتبار أن مرحلة المدنية هي مرحلة تالية لمرحلة الحضارة، وبالتالي فإن أي مجتمع يمر بمرحلة الحضارة تليها مرحلة المدنية، ولكن يختلف المدي الزمني لمرحلة الحضارة بين كل مجتمع وآخر، إذ يمكن أن تطول فترة الحضارة زمناً طويلاً قبل أن تدخل المجتمعات مرحلة المدنية كما يمكن أن تندثر الدولة قبل أن تدخل مرحلة الحضارة .

المدي النوعي: وهو يتعلق بظاهرة التطور الثقافي للمجتمعات متمثلة في عدة أوجة مثل العادات والتقاليد والدين ونظام الحكم والتي يمكن تحليلها علي ضوء تطور طبقات المجتمع بداية من الشكل البدائي للحضارة والفروق المتوارثة بين طبقات النبلاء والمزارعين ورجال الدين؛ وحتي الشكل النهائي للمدنية متمثلاً في إنحلال هذه الموروثات الطبقية والسيادة السياسية والعددية لطبقات جديدة تختلف في صفاتها و تصنيفها بناءاً علي الظروف الخاصة بأجناس أية حضارة علي حده.

وبإعتبار أن مفهوم الثقافة يشمل جميع أوجه حياة المجتمعات فإن ذلك يؤدي بالضرورة إلي ظهور مفهوميّ ثقافة الحضارة وثقافة المدنية كإشكاليات متفرعه من محاولة تحديد أياً من هذه المفاهيم علي حده.

الثقافة ؛ مدخل تنظيمي

تقتضي محاولة إسقاط نظرية الأنظمة علي الثقافة بإعتبار ها كينونة ديناميكية Dynamic Entity الأخذ بكافة العوامل التي تؤثر علي الثقافة وعملية تطورها

كأجزاء أصيلة ينتج من تفاعلها المستمر خاصية الـ Synergy ، وهو في الواقع مصطلح لا يوجد ما يماثله في اللغة العربية و لكنه يدل علي أن دخول أجزاء النظام في علاقات تبادلية مع بعضهم البعض يُنتج محصلة جمعية للكينونة لا تتساوي ومحصلة جمع كلاً من من المكونات علي حِده.

يرى ماكجرو مفهوما لكلمة ثقافة مبنيا على فكرة وجود الاستفادة العلمية من دراسة ثقافة الحيوانات الراقية.ويشير إلى أن العلماء لا يمكنهم الوصول إلى أية أفكار موضوعية أو معارف من تلك الحيوانات. وبالتالي، إذا تم تعريف الثقافة من حيث وجود المعرفة، فإن محاولات العلماء لدراسة ثقافة تلك الحيوانات سوف تنحصر قي نطاق ضيق للغاية. وبناء عليه وبدلا من تعريف الثقافة على ضوء المعرفة، يرى ماكجرو بأنه يمكننا النظر إلى الثقافة باعتبارها منظومة. وقد أوضح ستة خطوات لتلك المنظومة :

1) لابد من وجود عملية إكتساب سلوك من نوع جديد أو على الأقل تعديل لسلوك كان موجوداً مسبقاً.

2) لابد لهذا الكائن الذي إكتسب سلوكاً جديداً أن ينقله إلى غيره من بنى جنسه.

3) يتسم السلوك الجديد بالترابط قي حد ذاته وفيما بين الكائنات المكتسبة له بعضهم البعض على ضوء الخصائص السلوكية المتعارف عليها.

4) يجب أن يتسم السلوك المكتسب بالاستمرار لكى يقوم بممارسة أثره أطول فترة ممكنة بعد فترة الإستجابة.

5) يجب أن ينتشر هذا السلوك قي شكل وحدات إجتماعية.قد تكون هذه الوحدات الاجتماعية على شكل عائلات أوعشائر و قبائل أو أقارب.

6) يجب أن يستمر هذا السلوك عبر عدة أجيال.

وبالتالي فإن العلاقة التبادلية بين عوامل العادات والتقاليد والدين والنظام

السياسي سواء كان وافداً أو موروثاً تؤدي إلي تشكل ثقافة تختلف عن محصلة هذه العوامل بصورة إفرادية.

فإذا ما تأملنا في النسبية العالية لفهوم الثقافة نجد أن المداخل الحالية لتكميم ظاهرة و مفهوم الثقافة يمكن أن تتسق ومفهوم الثقافة كنظام Culture as a System، الشئ الذي يترتب، عليه تغيير المنظور الذي يتم حالياً تداول مفهوم الثقافة علي ضوءه.

وعلي العكس مما هو متوقع فإن تناول مفهوم الثقافة وفق هذا المدخل؛ وإن أدي إلي تسهيل عملية فهم الثقافة كظاهرة Phenomena؛ فإنه يزيد من حجم الإشكاليات المتعلقة بعملية تقييم أو حصر ثقافة أية حضارة أو مدنية أو مجتمع. ولا يعود السبب في ذلك إلي واقع أن عملية التشكل الثقافة هي عملية ديناميكية ومستمرة فحسب ولكن تتعرض محاولة حصر مكونات النظام الثقافة لأية مجتمع إلي الفشل، وهذا بدوره يعود إلي سببين أساسيين:

أن الثقافة كنظام لا تقتصر فقط في مكوناتها علي السمات العامة لأية حضارة إلا إذا كانت هذه الحضارة معزولة تماماً عن أي إحتكاك بالحضارات أو المجتمعات الأخرى المعاصرة لها.

إشكالية التعامل مع الموروث الثقافي بناءاً علي وقائع التاريخ المنهاجي؛ كما هو الحال وعملية تأريخ حضارة المجتمعات السابقة؛ و ليس من خلال التأريخ السيميائي للمجتمعات؛ والتي تقوم علي محاولة تلمّس الواقع اليومي المعاش للحضارات السابقة و ثقافاتها.

وعليه فإن أية محاولة لإستشفاف ثقافة المجتمعات السابقة بناءاً علي تاريخ حضاراتها المدون لا بد و أن تكون عملية يشوبها الخلل. ويمكننا المقارنه بين واقع تدوين المجتمعات الإنسانية لتاريخها المعاصر والزخم النوعي والكمي الذي تتميز به مقارنه بالتاريخ المدون الحضارات السابقة. فالتاريخ ما هو إلا عبارة عن حصيلة تراكمية لواقع الحياة اليومية المعاشة، إضافة إلي ذلك فإن تناول

الثقافة كنظام يقتضي إعتبار كافة مكوناتها (عواملها) بوصفها أجزاء أصيلة تؤدي إلي تغيير وجهة وطبيعة النظام وذلك علي ضئالة تأثيرها.

وبالتالي فإن تناول الثقافة كعملية جدل مستمر بين الحضارة الغربية والحضارة العربية (في مرحلة ما قبل الإسلام) وخصوصاً جدل الوافد والموروث بالإضافة إلي التعامل مع الثقافة كنظام يدُخل كافة المكونات الثقافية للحضارة الإسلامية كمكونات في الحضارة الغربية وكذلك هو الحال مع الحضارة الإسلامية.